التجديد عند محمد رشيد رضا

الأستاذة/ برهاني منوبة

تمهيد:

لما كان من طبيعة البشر أن يضعف تأثير الوحي في قلوبهم بطول الأمد عن عهد النبوة فينتشر الفسق بينهم، نتيجة اتباعهم لأهوائهم، أنعم الله عليهم بأن بعث فيهم مجددين، مصلحين، هم ورثة الأنبياء، يعملون لإصلاح ما فسد، وترميم ما خرب.

ورشيد رضا أحد هؤلاء المجددين باعترافه الشخصي حيث قال: "أعد نفسي داعية تجديد ديني مدني، وعدوا مجاهدا للجمود على التقليد والإصرار على ما ثبت بطلانه، أو ضرره من القديم.."[1]

وقد دعا رشيد رضا إلى التجديد قبل شيوع هذا المصطلح، وذلك عندما أشار إلى التجديد المدني بقوله: "أيها الشرقي المستغرق في منامه، المبتهج بلذيذ أحلامه حسبك حسبك، فقد تجاوزت بنومك حد الراحة، وكاد يكون إغماء او موتا زؤاما. تنبه من رقادك وامسح النوم من عينيك، وانظر إلى هذا العالم الجديد، فقد بدلت الأرض غير الأرض، ودخل بها الإنسان في طور اخر، خضع له به العالم الكبير"[2].

إلى جانب مقالات كثيرة في ذلك أشهرها مقالات: "الحياة الزوجية"، "الوحدة الإسلامية" ويقر رشيد رضا أنه من دعاة التجديد الأوائل. فيقول: "فأنتم ترون أنني كنت منذ ثلث قرن داعية تجديد وذلك قبل شيوع هذا اللفظ في هذه السنين، وقد تفضل علي بلقب "المجدد" بعض الكتاب والمحبين قبل أن ينتحله ويزيد احتكاره بعض المعاصرين"[3].

وشاهد ذلك ما أورده في مقالات عن التجديد، والتجدد والمجددين، والتي سأحاول إبرازها في الآتي:

أولا: معنى التجديد

التجديد عند رشيد رضا هو رجوع إلى الينابيع الأولى للإسلام، وهي الكتاب والسنة، وعمل السلف الصالح، والتمسك بتعاليمه، والتحلي بمبادئه من سهولة ويسر، وهداية، ومراعاة مصالحه ومقاصده، والدعوة إلى احياء السنن والقضاء على البدع. قال رشيد رضا: "المراد بتجديد الدين تجديد هدايته، وبيان حقيقته، وحقيته، ونفي ما يعرض لأهله من البدع، أو الغلو فيه، أو الفتور في إقامته، ومراعاة مصالح الخلق، وسنن الاجتماع والعمران في شريعته"[4].

ويقول في موضع اخر: "ينحصر المراد بالتجديد في الرجوع بالدين، إلى سهولته، وهدايته كما كان في الصدر الأول، وجمع كلمة المسلمين على ما أجمعوا عليه قبل التفرق والاختلاف، وجعل ما عدا القطعي منه مما يُعذر فيه كل فرد باجتهاده، وكل مقلد باتباع المذهب أو العالم الذي وثق بعلمه، من غير تعصب يفرق الأمة الواحدة إلى شيع، وفرق يعادي بعضها بعضا"[5].

وقد توسع رشيد رضا في مفهوم التجديد، وذلك بإيراده لبعض المصطلحات المشاكلة له كما سيتضح في الآتي:

المصطلحات المشاكلة للتجديد:

من المفاهيم القريبة للتجديد: الجديد والتجدد وما يعاكسها في معنى القديم.

أ) **القديم والجديد:** الخلق كله جديد وإنما القديم المطلق هو الله عزّ وجلّ، والجدّة والقدم في المخلوقات نسبيان، فكل قديم كان جديدا، وكل جديد سيصير قديما، ومن الأمثال العامة: "من ليس له قديم فليس له جديد"[6]. فالقديم والجديد كل منهما مرتبط بالآخر، فذكر أحدهما يستلزم ذكر الاخر، فإن هناك

تناسبا بينهما، وعلاقة هذا بالتجديد أنه كلما حصل تجديد على أي مستوى فهو جديد بالنسبة للسابق القديم عنه.

ب) **التجدد والتجديد**: لا يخرج معنى التجديد عن التجدد، فهما وجهان لحقيقة واحدة.

قال رشيد رضا: "فنحن في معمل الكون الأعظم كالماء في معمل الجليد، كل آن في تجدد وتجديد، تارة يكون مائعا سائلا، وتارة يكون بخارا طائرا، وتارة يكون جليدا جامدا، وهكذا عالم المادة كله، تجدد طبيعي فطري، تحليل وتركيب، بناء وهدم... فالتجدد والتجديد إنما هو في الصور والأعراض، لا في ايجاد الجواهر والمواد... ومن التجديد في الأعمال البشرية ما تهدي إليه غريزة الاستقلال المقابلة لغريزة التقليد والميل إلى الاستنباط والاختراع، ولولاه لكانت جماعات البشر كأسراب الطير، ومساكنهم لا ترتقي عن خلايا النحل، وقرى النمل"[7].

وخلاصة القول: إن الزمان والمكان لا علاقة لهما في المفاضلة بين الجديد والقديم، لأن القديم كان في يوم ما جديدا، والجديد يعود قديما – كما سبق ذكره – وأن أساس التفاضل إنما هو فيما يتعلق بوصف الأشياء، ودرجة انتفاع الناس بها، فقد يكون للقديم فضل الاختراع والاكتشاف ويكون للجديد فضل التحسين الذي يتم به الانتفاع.

لذلك قال رشيد رضا: "إن تفضيل الجديد لجدته، على القديم لقدمه، مكابرة للحس، وسفه للنفس ومصادمة للعقل، وهو باطل بالإجماع... فإن من القديم ما تنافس فيه خواص الناس في أرقى أمم الحضارة، فنحن في هذا العصر نشهد لكثير من قدماء الحكماء والعلماء والشعراء بالفضل، نعترف بأن منهم من لا نظير له في

هذا العصر... وإن كان كل جديد يُحْمَدُ ويُؤثَرُ لجدته فماذا تقولون في هذه السموم الجديدة المخدرة للأعصاب، بل المفسدة لصحة الأجساد، المطفئة لسرج العقول؟

القول الحق الفصل في القديم والجديد، أنه لابد للبشر في عصر من القديم والجديد، لأن في كل منهما النافع والضار، والحسن والقبيح، ومن الناس من يميل بفطرته إلى أحدهما، ومنهم من يميل إلى الاخر، وقد يرجح أحدهما على الآخر بحسب درجة الانتفاع [8].

وينتهي رشيد رضا إلى أن التجديد سنة من سنن الكون لا تصح الحياة بغيره، وهو بمعنى الإحياء والتطهير، والإصلاح، والتطور. وأضيفت في عصرنا هذا معان أخرى كالتحديث والحداثة والتقدم.

ثانيا: مشروعية التجديد

الدليل على أن التجديد حاجة من حاجات البشر، الكتاب والسنة .

أ) **الكتاب**: لما كان تجديد الأمم لا يتحقق إلا بالإصلاح، لا بإماتتها وهدم القديم من ثوابتها من عقائد وأخلاق وآداب... فإن رشيد رضا استدل على مشروعية التجديد بآية الإصلاح وهي قوله تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[9] وقال تعليقا على الآية: "أي ما أريد إلا الإصلاح العام فيما أمر به، وفيما أنهى عنه، ما دمت أستطيعه، لأنه أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ليس لي هوى ولا منفعة شخصية خاصة بي فيهما، ولولا ذلك لما فعلته"[10].

ب) **السنة**: قوله ﷺ: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)[11]. وقد علق رشيد رضا على الحديث بأن التجديد هو الرجوع إلى هدي القرآن والسنة، والعمل بمقتضى كل منهما دون تعصب أو تفرقة.

وهو يؤكد دائما أنه لا يكاد يمضي على أمة كأمتنا قرن من القرون يخلو من إمام عليم يصلح لتولي زعامة الإصلاح والتجديد. وهذا من فضل الله ورحمته بعباده.

ثالثا: المجددون في الإسلام

كلما ضعف الدين في نفوس البشر، وحادوا عن سبيل الحق والعدل، ظهر عالم مجدد إذ أن بعثة المجددين مرتبطة بالحاجة إلى التجديد.

وقد جمع رشيد رضا أعظم المجددين في الإسلام بدءا من القرن الثاني وانتهاء بالقرن الذي عاش فيه.

والمستقرئ لكلام رشيد رضا في المجددين، يمكن أن يلاحظ أنه يقسمهم إلى نوعين:

- مجددون كان تجديدهم عاما
- مجددون كان تجديدهم خاصا

1) المجددون الذين كان تجديدهم عاما:

كلما انتشر الفساد في الأرض، وعمت الفتنة، وحلت البدعة، ومزقت السنة، ظهر مجدد ليصلح حال الأمة، ويخرجها من ظلمات الغي والظلم، إلى هداية الإسلام ونور العقل، قال رشيد رضا: " فكان الإمام عمر بن عبد العزيز مجددا في القرن الثاني لما أبلى قومه بنو أمية وأخلقوا وما مزقوا بالشقاق وفرقوا، وكان الإمام أحمد بن حبل مجددا في القرن الثالث لما أخلق بعض بني العباس من لباس السنة، ورشاد سلف الأمة، باتباع ما تشابه من الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله... وكان الشيخ أبو الحسن الأشعري مجددا في القرن الرابع بهذا المعنى، وحجة الإسلام أبو حامد الغزالي مجددا في أواخر القرن الخامس وأول السادس لما انتشرت نزغات الفلاسفة، وزندقة الباطنية، والإمام أبو محمد علي بن حزم

الظاهري في القرن السادس لما سحقت الآراء من فقه النصوص الشرعية، وشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم مجددين في آخر القرن السابع وأول الثامن لجميع ما مزقت البدع الفلسفية والكلامية والتصوفية والإلحادية، من خلل الكتاب والسنة السنية في جميع العلوم والأعمال الدينية [12].

فهؤلاء العلماء هم أعلام التجديد الديني العام في نظر رشيد رضا.

2) المجددون الذين كان تجديدهم خاصا:

وهؤلاء أيضا نوعان:

أ- نوع كان تجديدهم الديني منحصرا في شعب خاصة، أو بلد معين، قال رشيد رضا: "وظهر مجددون آخرون، كان تجديدهم خاصا ينحصر في موضع كبير أو صغير... كأبي إسحاق الشاطبي صاحب الموافقات في الأندلس، وولي الله الدهلوي، والسيد محمد صديق خان في الهند والمولى محمد بن بير علي البركوي في الترك، والشيخ محمد عبد الوهاب في نجد والمقبلي والشوكاني وابن الوزير في اليمن"[13].

ب- أما النوع الثاني، من المجددين فهم الذين كان تجديدهم خاصا منحصرا في العلم أو الإدارة أو العمران أو الحرب وهم كثيرون، ومنهم من جمع بين كل ذلك وهو في رأي رشيد رضا السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي عرف في عهده مجد الإسلام، إلى جانب ذلك ظهر مجددون لكل دولة، وفي مجالات مختلفة ففي الإدارة والعمران كمحمد علي باشا بمصر، وفي الحرب كالأمير عبد القادر في الجزائر، وفي السياسة كمصطفى رشيد باشا في الترك، وخير الدين باشا في تونس..."[14].

وقد نوه رشيد رضا بفضل حكيمي الشرق: جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده في التجديد الديني، والإصلاح الاجتماعي، واعتبرهما النموذج الأمثل في ذلك، إذ أن كل واحد منهما مكمل للآخر، فالأفغاني رجل دين وإن غلبت عليه السياسة،

ومحمد عبده رجل سياسة وإن غلب عليه الدين، وكل منهما دعا إلى وجوب الاجتهاد، وتحريم التقليد، وقد اتحدا في إصدار العروة الوثقى التي تعد مقالاتها في نظر رشيد رضا أبلغ كلام بشري في التاريخ وهو دائما يردد: "نحن في حاجة إلى تجديد مجيد وإلى مجددين في العلم والحكمة كمحمد عبده وجمال الدين، وأنهما سلالة علمية عقلية إصلاحية جديرة بالقيام بسنتهما، والمضي في إصلاحهما"[15].

ويدل ذكر رشيد رضا لهؤلاء المجددين وتعدادهم على أن الإسلام في تجديد دائم، وفي كل عصر، وهو يرى في كل مجدد ضوءا يبعثه الماضي ليضيء به المستقبل.

رابعا: أنواع التجديد عند رشيد رضا

إن التجديد الحقيقي هو الذي يشمل كل جوانب الحياة؛ الدينية والأدبية، والاجتماعية والفكرية والسياسية... لكنه يراعي الثوابت ويحافظ على تراث الأمة، وقد قسم رشيد رضا التجديد إلى نوعين[16]:

النوع الأول: تجديد ديني

وهو الذي يتعلق بالمصالح العامة وما تحتاج إليه من التشريع، ودليله قوله ﷺ :(من سن في الإسلام سنة حسنة...)[17]. وبذلك يشمل هذا التجديد كل مجالات الحياة من أدبية، واجتماعية وسياسية...

ومن أمثلته: وضع قواعد العلوم والفنون النافعة، وإنشاء المدارس والملاجئ، والمستشفيات ويستوي في هذا التجديد الأفراد والجماعات والحكومات.

وأما التشريع المتعلق بهذا التجديد فهو موكول في الإسلام إلى أصحاب الحل والعقد، فهم يقررونه بالشورى بينهم، ويجتهدون فيما لا نص فيه وبشروطه المدونة في كتب الفقه.[18]

النوع الثاني[19]: تجديد مدني

ويتعلق بأمور المعايش كالزراعة والصناعة، والتجارة، وأمور العادات التي ليس فيها مفسدة. وهذا التجديد موكول إلى تجارب الناس وما تعارفوا عليه ما لم يكن فاسدا، ودليله قوله ﷺ: (أنتم أعلم بأمر دنياكم)[20].

وخلاصة القول: إن التجديد المحمود – ويشمل النوعين السابقين – هو الذي يشمل ما بعده الإسلام من فروض الكفاية، بحيث إذا قام بها البعض ارتفع عن الجميع، وإذا لم يقم بها أحد كان الجميع آثما.

وهناك التجديد المذموم، الذي عبر عنه رشيد رضا بالتجديد الإلحادي الذي يدعو إلى ترك القديم لأنه قديم، والأخذ بالجديد لأنه جديد، ويهدف إلى تجريد المسلمين من هداية الدين والأدب والتشريع، والعربية...[21]. ومن أمثلته:

قال رشيد رضا: "الدعوة إلى مساواة النساء بالرجال في الميراث، وإباحة الرقص والسباحة، والخمر، وما تبع ذلك من ضروب الفسق، والنعي على المرأة أن تكون زوجة محصنة، وأما مربية، ويسمون الدار سجنها – وإن كانت كقصور الجنان – ويسمون الزوج سجانا لها – وإن كانت في نظره كالحور المقصورات في الخيام – وأكثر من ذلك جعل المرأة أهلا للحرب والقتال، وقيادة الجيوش البرية والبحرية، والأساطيل المائية والهوائية..."[22].

خامسا: ضوابط التجديد عند رشيد رضا

إن التجديد الذي يريده الإسلام، لابد أن يقع بأدواته الشرعية، وفي إطاره الشرعي، فلا يستطيع أحد أن يجدد إلا إذا توافرت الشروط، وكثيرا ما كان رشيد رضا يردد: "نحن ندعو إلى الإصلاح والتجديد الإسلامي على قواعد الكتاب والسنة"[23]. وتفصيل هذه القواعد في الآتي:

أ) التفرقة بين ما يتجدد وما لا يتجدد:

فالقطعيات كالعقائد والعبادات لا مجال فيها للتجديد، بينما الظنيات فهي قابلة للتجديد وتُراعى فيها المصلحة بشروطها الشرعية المعروفة في كتب الأصول. قال رشيد رضا: "ولكني أسير في كل من التجديد والمحافظة على سنن الطبيعة، فأقول في الدين بقاعدة الإمام مالك – رحمه الله – وهي الوقوف في العقائد والعبادات عند نصوص القرآن، وبيان السنة النبوية له وسيرة السلف الصالح فيه قبل حدوث الآراء والبدع، ومراعاة مصالح العامة في الأحكام الدنيوية من مدنية وسياسية وغيرها"[24].

هذا بشأن التجديد الديني، أما التجديد الدنيوي الذي وكله الشارع إلى الناس فيما يتعلق بأمور دنياهم، والمشار إليه في أنواع التجديد، فقد دعا رشيد رضا إلى الأخذ فيه بأحدث ما انتهت إليه علوم البشر مع مراعاة ثوابت الأمة ومقدساتها وما ترتبط به من وسائل ومقاصد. قال رشيد رضا: "أما هذا – النوع من التجديد – فأنا أدعو فيه إلى أحدث ما انتهت إليه علوم البشر وفنونها وإلى ما لا يعرف له أحد من الزيادة عليها بقصد إعزاز الأمة وإعلاء شأن الملة فيها، ولابد فيه من المحافظة على مقومات الأمة ومشخصاتها التي كانت بها أمة في وسائلها ومقاصدها"[25].

ب) أن لا يؤدي التجديد إلى ضرر أو ضرار، ولا يحقق منفعة خاصة للمجدد:

قال رشيد رضا: "والشرع لا يقيد الأمة في التجديد إلا باجتناب الضرر والضرار والظلم، مع قواعد إباحة الضرورات للمحظورات وتقديرها بقدرها ومراعاة الحق والعدل" [26]. وقال في موضع آخر: "... أن نكون على حذر في كل تغيير في مقومات أمتنا ومشخصاتها، وأن نعتبر في ذلك بمسير الأمم العزيزة في

كل انقلاب حدث فيها، ونوازن بين نفعه وضرره، وما ينطبق وما لا ينطبق علينا منه... وخاصة في الأمور الاجتماعية" [27].

ويؤكد رشيد رضا أن التجديد المبني على منفعة خاصة، أو على اتباع الهوى ليس بتجديد مطلوب، بل يدخل في معنى التجديد الإلحادي الذي لا تحتاجه الأمة، وهو المعنى الذي فهمه رشيد رضا من قوله تعالى: ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[28].

ب) أن يستجمع المجدد شروط المجتهد:

من العلم بالقرآن والسنة دراية ورواية، والعلم باللغة، والمعرفة بمواقع الإجماع والخلاف حتى لا يخرق الإجماع اليقيني... وأن لا يجدد لهوى في نفسه، أو لمنفعة شخصية خاصة به... وغير ذلك من الشروط التي قال بها جل العلماء والمدونة في كتبهم.

سادسا: وجه الحاجة إلى التجديد

لأن نصوص الشريعة محدودة، والنوازل التي تقع غير محصورة، كان التجديد حاجة تحتمها طبيعة هذا الدين، بحيث يستطيع العلماء في كل عصر أن يُنزلوا النصوص الشرعية على الحوادث المستجدة في زمانهم ولا سيما في هذا العصر الذي انقلبت فيه الموازين، وعمت فيه الفوضى وانتشرت فيه الإباحية المطلقة، ولا سبيل لحفظ مكانة الأمة وإعادة مجدها وعروبتها ومقوماتها الحضارية إلا بالتجديد.

ويمكن حصر وجوه الحاجة إلى التجديد في نظر رشيد رضا في العناصر التالية:

1- إحياء الماضي في الحاضر:

رشيد رضا يدعو دوما إلى العودة إلى النص مع عدم إلغاء ما هو عليه المجتمع من تطور ورقي، ويعتبر التجديد هو إعادة تشكيل حاجات الناس وأفكارهم

من جديد بصورة يحافظ فيها على القديم، فهو دائما يحاول أن يجمع بين القديم والجديد بإحياء الأول في الثاني، وهو ينتقد على من يقتصر على القديم لأنه قديم، أو على الجديد فقط لأنه جديد، قال: "أما ما كان عندنا من حسب قديم، ودين قويم... فقد هجرناه ونسيناه، وأما ما حاولناه من اقتباس طريف وانتحال حديث. فإنا تشبثنا بأهدابه، ولم ننسج شيئا من أثوابه، فكل ما لدينا من القديم والجديد، فهو من قشور التقليد... فإن الأزهر والمعاهد الدينية والمدارس الأهلية بحاجة إلى الإصلاح لتجديد هداية الدين ولتجديد حضارتنا المدنية وإقامة سائر مصالحنا، فنحن في حاجة إلى التجديد المجيد الجامع بين الطريف والتليد"[29].

2- الاستفادة من التاريخ:

يعتبر رشيد رضا أن من يلغي التاريخ من أجل العودة إلى الأصول الأولى فإنه حتما سيقضي على المستقبل، فهو يريد فهما جديدا للإسلام يرتبط بالواقع الاجتماعي والأخلاقي والسياسي والاقتصادي... لذلك يبحث في الآيات وفي دلالاتها عن حلول لمشاكل العصر، حتى يحقق للناس مقصد الهداية.

ويرى بأن المفاسد التي تحدث في المجتمع هي قديمة، عبر التاريخ، ولا يمكن دفعها، إلا بالاستفادة والرجوع إلى آثارها، والمضي في إصلاحها بقدر استعداد الأمة لذلك.

قال رشيد رضا: "... الدعوة إلى الرذيلة باسم الأدب المكشوف، والتنفير من الفضيلة بدعوى الحرية وتحرير المرأة الشرقية، وتقليد الحضارة الغربية، فإن كل هذه المفاسد قديمة لا جديدة كما يعلمه المطلعون على التاريخ ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[30]، أي أمرناهم بالطاعة والفضيلة، ففسقوا عن أمرنا إلى المعصية والرذيلة، فأترفوا شهواتهم الخاصة، على النهوض بالمصالح العامة، فحق عليهم قولنا﴿فَدَمَّرْنَاهَا﴾

الظَّالِمِينَ﴾[31]، وقولنا ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾[32]، وقولنا ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[33]؛ أي ما كان ليهلكهم بظلم منه لهم وهم مصلحون في أعمالهم"[34].

وخلاصة القول:

أنه لولا الإحاطة بالتاريخ وعلومه لما كان هناك تجديد، إذ أن هذا مرتبط بما يحدث في كل عصر، وفي كل مصر، من سنن، وحقائق، واكتشافات، وعلوم.

3- دفع الأمة إلى التطور والخروج من التقليد والجمود

اعتبر رشيد رضا الجمود والتقليد من الأشياء التي تقتل الأمة، وخاصة في عصر تطورت فيه الحياة والمدنية الحديثة واحتاجت إلى قوانين وتشريعات جديدة. لذلك، فقد كان المقصد الأصلي لإنشاء (المنار) هو محاربة الجهل والتقليد، وإحياء السنن، والقضاء على البدع، حيث يرى رشيد رضا أنه باكتشاف قيم الإسلام الأصيلة من جديد، يمكن التصدي للتخلف والجهل والشعوذة...

فالمطلع على (تفسير المنار) يجد نفسه أمام تفسير جديد للمفاهيم يريد استيعاب مشاكل العصر، فهو في واقعه ترجمة لهذه المفاهيم بلغة العصر. وهذا نتيجة لتأثر رشيد رضا بكثير من مبادئ العلم الحديث، ومكتسباته، حيث قدم فصولا في تفسيره (في علم الأجنة)، كما أورد عدة مباحث لمسائل من العلوم الكونية، وغاص في علوم شتى كعلم الفلك، والكواكب، والنجوم.

ويؤكد رشيد رضا دائما على حاجة الأمة إلى التجديد في أمور الدنيا التي تختلف مصالحها باختلاف الزمان والمكان، مع مراعاة أحكام الشريعة في ذلك. قال: "نحن نحتاج إلى تجديد استقلالي كتجديد اليابان ترتقي به مصالحنا الاقتصادية، والعسكرية، والسياسية، وتنمى به ثروتنا الزراعية، والصناعية والتجارية، ونكون

به أمة عزيزة، ودولة قوية، مع حفظ مقومات أمتنا من دين وثقافة وتشريع، ولغة، وحفظ مشخصاتها القومية، من زي وعادات حسنة وأدب"[35].

وباختصار: فإن رشيد رضا يدعو إلى الانفتاح على العلوم النافعة مع المحافظة على التراث والنواحي الأخلاقية والدينية، لأنه لابد للشعوب من تلقي العلوم على اختلاف أنواعها لتحسن تربية أبنائها وأجيالها الصاعدة لتضاهي الدول المتطورة ثقافيا وعلميا[36].

سابعا: نماذج من التجديد عند رشيد رضا

لقد عمل رشيد رضا جاهدا لرسم نظام جديد، سواء من خلال تفسيره للقرآن وتناوله للأحاديث، أو من خلال المقالات والموضوعات المستقلة التي نشرها في مجلته المنار.

ويمكن القول أنه استطاع أن يطرق كل القضايا التي تتعلق بحياة الفرد والمجتمع ولم يترك ثغرة إلا وسدّها.

لذلك كانت مجالات التجديد عنده كثيرة، سأقتصر على بعضها في الآتي:

1) في علم الأصول:

أ- الدعوة إلى إنشاء مذهب جديد موحد:

لقد دعا رشيد رضا العلماء في زمانه إلى تأليف كتاب في الشريعة أساسه القرآن والسنة يتماشى مع حاجات العصر، على أن يكون واضحا بسيطا محددا لأبواب الفقه، مبينا فيه ما كان مستنبطا من النص، وما هو من الاستنتاج العقلي. قال: "وحاصل ما أريد بالوحدة الإسلامية في السياسة والقضاء أن يجتمع أهل الحل والعقد من العلماء والفضلاء ويضعوا كتابا في الأحكام مبنيا على قواعد الشرع

الراسخة، موافقا لحال الزمان، سهل المأخذ، لا خلاف فيه، ويأمر الإمام الأعظم حكام المسلمين بالعمل به..."[37].

ب- **التوسع في مفهوم الإجماع:**

لقد وسع رشيد رضا دائرة الإجماع، ولم يجعله محصورا في أهل العلم الشرعي، ولا بالأحكام الشرعية، فقد عرّفه بأنه: اتفاق أهل الحل والعقد، وهم كبار العلماء ورؤساء الجند والقضاة، وكبار التجار والزراع، وأصحاب المصالح العامة، ومديرو الجمعيات والشركات وزعماء الأحزاب ونابغو الكتاب والأطباء والمحامين على أمر في الأمور المتعلقة بالمصالح العامة[38].

فرشيد رضا غيّر مفهوم الإجماع الأصولي الذي هو اتفاق مجتهدي الأمة بعد وفاة نبيها في عصر من العصور على أمر ما، فألحق الأمراء والسلاطين والقواد... بالعلماء، وسمى مجموعهم بأهل الحل والعقد، ويرى أن ميدان الإجماع هو مصالح المسلمين العامة، وليس الأحكام الشرعية.

2) في علم الفقه

تناول رشيد رضا الأحكام الشرعية العملية تناولا يستجيب لمتطلبات الواقع، وذلك كقضايا الربا والمرأة... اعتمادا على الفهم المقاصدي للإسلام بدل الفهم النصي، فالنصوص عنده، يجب أن تفهم وتؤول على ضوء المقاصد (العدل، التوحيد، الحرية، المساواة...). ومن أمثلة ذلك:

أ- **الحكم على المرتد:** يحكم علماء المسلمين على المرتد بالقتل، لكن رشيد رضا ذهب مذهبا آخرا في الحكم عليه، حيث ميز بين نوعين من الارتداد:

الأول: الذي يظهر عداوته وخطره على الأمة ويحارب المسلمين.

والثاني: المسالم الذي لا يقاتل المسلمين ولا يظهر شره.

فحكم بقتل الأول ولم يحكم بقتل الثاني. والجدير بالملاحظة أنه اعتمد في الوصول إلى ذلك الحكم على رد الأحاديث بناءً على أسباب ورودها وشرح الآيات، ومقارنتها بآيات أخرى تحرم الإكراه في الدين، قال: "إنه ليس في القرآن أمر بقتل المرتد، بل فيه ما يدل على عدم قتل المرتدين المسالمين، الذين لا يحاربون المسلمين، ولا يخرجون عن طاعة الحكومة... والمرتدون إذا لزموا الحياد – وهو ما عبر عنه باعتزال المسلمين، وإلقاء السلم، وكف الأيدي عن القتال– فلا سبيل إلى قتلهم، وإلا قتلوا حيث ثقفوا؛ لأنهم محاربون، لا لأنهم مرتدون فقط، وقال: ﴿وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾[39]، أي دون غيرهم من المسالمين والمحايدين...وأن الأمر في الحديث الدال على قتل المرتد (من بدّل دينه فاقتلوه)[40]... كان لمنع المشركين وكيد الماكرين من اليهود، فهو لأسباب قضت بها سياسة ذلك العصر التي تسمى في عرف أهل عصرنا سياسة عرفية عسكرية لا لاضطهاد بعض الناس في دينهم، ودليل ذلك أن بعض المسلمين أرادوا إكراه أولادهم على الإسلام فمنعهم الرسول ﷺ وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[41] [42].

3) في علم التفسير:

أ) مراعاة مقاصد القرآن:

لو تتبعنا المفسرين للقرآن الكريم عبر العصور، لرأينا أنهم أضافوا من خلال معارفهم ومكتسباتهم العلمية الجديد إلى التفسير، وذلك من خلال المعاني الجديدة لآيات القرآن التي كشف عنها التقدم العلمي، ومعطيات الحضارة المتجددة، وهذا لبيان استمرار خلود القرآن، وإعجازه على مر الزمان.

ورشيد رضا أكثر من توسع في تفسير القرآن الكريم على ضوء العلم الحديث بكل جوانبه حيث يرى بأن المفسرين لم يحيطوا بكل مقاصد القرآن وحكمه. قال: "إن الكثير من حكمه ومعارفه لم يكشف عنها اللثام، ولم يفصح عنها عالم ولا

إمام"[43]. والجديد الذي جاء به رشيد رضا هو أنه فسر القرآن تفسيرا مقاصديا. قال: "والتفسير الذي نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم الأخرة، فإن هذا هو المقصد الأعلى منه وما وراء هذا من المباحث تابع له أو وسيلة لتحصيله"[44]. وقال أيضا: "كانت الحاجة شديدة إلى تفسير توجه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن على الوجه الذي يتفق مع الآيات الكريمة المنزلة في وصفه، وما أنزل لأجله من الإنذار والهداية والإصلاح... ثم العناية إلى مقتضى حال هذا العصر في مراعاة أفهام صنوف القارئين"[45].

وعليه فأول من عني بمقاصد القرآن هو رشيد رضا وجعل الإصلاح هو المقصد الأعلى لها لأنه المشترك بينها، فكل مقصد منها يعبر عن جانب من جوانب الإصلاح، وتحدث عن الإصلاح العقائدي، والفكري، والاجتماعي، والتشريعي..."[46].

ب) تنقية التفسير من الإسرائيليات:

أما المظهر الثاني من مظاهر التجديد في التفسير عند رشيد رضا فيتجلى في دعوته إلى تصفية كتب التفسير من الانحراف والخطأ، وذلك بتجنب الإسرائيليات والأباطيل التي يرفضها العقل الصحيح والعقل السليم، حيث اعتبر رشيد رضا أن هناك صوارف تشغل القارئ عن المقاصد العالية للقرآن، فمنها ما يشغله عنه بمباحث الإعراب وقواعد النحو ونكت المعاني ومصطلحات البيان، ومنها ما يصرفه عنه بجدل المتكلمين، وتخريجات الأصوليين واستنباطات الفقهاء المقلدين، وتأويلات المتصوفين، وتعصب الفرق والمذاهب بعضها على بعض وبعضها بلفته عنه بكثرة الروايات، وما مزجت به من خرافات الإسرائيليات...وغرضه من هذا كله أن أكثر ما روي في التفسير المأثور أو كثيره حجاب على القرآن وشاغل لتاليه عن مقاصده العالية المزكية للأنفس المنورة

للعقول، فالمفضلون للتفسير المأثور لهم شاغل عن مقاصد القرآن بكثرة الروايات التي لا قيمة لها سندا ولا موضوعا، كما أن المفضلين لسائر التفاسير لهم الصوارف الأخرى المذكورة... وكان الواجب جمع الروايات المفيدة في كتب مستقلة، كبعض كتب الحديث وبيان قيمة أسانيدها، ثم يذكر في التفسير ما يصح منها بدون سند، كما يذكر الحديث في كتب الفقه، لكن يعزى إلى مخرجه كما نفعل في تفسيرنا هذا[47].

4- في السياسة الشرعية

يؤكد رشيد رضا أن خلفاء المسلمين بعد الراشدين قصّروا في حفظ الإسلام فضلا عن نشره، حيث ما رعوا الخلافة حق رعايتها، بل صيروها ملكا عضوضا[48]، كما ورد في أعلام النبوة، فساءت الحال، وهذا لا يمنع من تدارك ما مضى[49]، لذلك اقترح إصلاحا وتجديدا على مقام الخلافة الإسلامية بتأليف رسالة فيها عام 1922 م، وتضمنت هذه الرسالة ما يلي:

أ) الدعوة إلى إعادة إحياء الخلافة الإسلامية، بناءً على مبادئ الإسلام، وقواعد الاجتهاد لفهم القرآن والسنة، قال: "والعلاج الشافي لضعف المسلمين هو إحياء منصب الإمامة، بإعادة سلطة أهل الحل والعقد، المعبر عنهم بالجماعة لإقامة الحكومة الإسلامية الصحيحة، بجمعها بين العدل والمساواة وحفظ المصالح ومنع المفاسد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..."[50]. وقال أيضا: "وقد ثبت أن الجمع بين حضارة العصر، وفنونه، وبين المحافظة على الإسلام لا يتم إلا بالاجتهاد في الشرع"[51].

ب) جعل الخلافة قائمة على أساس الشورى والدستور، لا على العصبية والضرورة، قال رشيد رضا: "أؤكد دوما على بيان مفسدة إخراج الخلافة الإسلامية

عما وضعها عليه الإسلام، وجعله تابعة لقوة العصبية والتغلب، فهذه المفسدة أصل المفاسد والرزايا التي أصابت المسلمين في دينهم ودنياهم..."[52].

ج) بيان النموذج الأمثل لترشيح الخليفة، حيث دعا رشيد رضا العلماء والقادة السياسيين إلى اختيار عدد من الأفراد لمنصب الخلافة، ثم يلتحق هؤلاء بمدرسة تعلم مبادئ الخلافة، وتقوم بالتدريب على القيام بمهامها، ثم بعد ذلك يرشح هؤلاء الأفراد واحدا من بينهم لمنصب الخلافة فإذا قبله العلماء والقادة، يُعرض على عامة المسلمين، وعند الموافقة يُعين هذا المرشح خليفة على المسلمين[53].

فرشيد رضا دائما يربط شرعية الخليفة برضا الأمة وقبولها، ويرفض حكم القهر والتغلب في جميع الحالات، ويفرق بين الحالتين بقوله: "والفرق بينهما أن الأولى صدرت عن أهل الحل والعقد باختيارهم، وأما الثانية فصاحبها هو المعتدي على الخلافة بقوة العصبية، لا باختيار أهل الحل والعقد له... ومعنى هذا أن سلطة التغلب كأكل الميتة ولحم الخنزير عند الضرورة، تنفذ بالقهر، وتكون أدنى من الفوضى، ومقتضاه أنه يجب السعي دائما لإزالتها عند الإمكان، ولا يجوز أن توطن الأنفس على دوامها..."[54].

د) ابتكر رشيد رضا طريقة جديدة لإقامة الخلافة الراشدة، بتحديده مقرا لها فاقترح منطقة الموصل بالعراق كمنطقة وسطى بين بلاد العرب وبلاد الترك، ثم تنضم البلاد الإسلامية إلى تلك الخلافة إذا اقتنع قادتها بأهمية الخلافة الإسلامية، ولم يتحقق هذا الاقتراح في زمان رشيد رضا – الذي كان أمله ضعيفا في تحقيقه – ولا في زماننا للظروف التي يمر بها عالمنا الإسلامي. قال رشيد رضا في ذلك: "إنني ضعيف الأمل في كل من العرب والترك، ولا أرى أحدا منهما قد ارتقى إلى هذه الدرجة بنفسه، ولا أرى آية بينة على استعدادهما لما اقترحتُ من تعاونهما عليه ولست ممن يدع لليأس مسربا يسرب فيه إلى قلبه، لذلك اقترح جعل الخلافة

في منطقة وسطى من البلاد التي يكثر فيها العرب والترك والكرد كالموصل المتنازع عليها بين العراق وسوريا... فتكون الموصل اسما وافق المسمى..."[55].

نتائج البحث:

في ضوء ما تقدم يمكن الوصول إلى هذه الاستنتاجات:

1- إن التجديد والمحافظة من الإشكاليات العامة في تاريخ الفكر الإسلامي، التي برزت أكثر لدى دعاة الإصلاح الديني ولا سيما عند صاحب المنار، الذي تناولها من جميع جوانبها وبوضوح تام.

2- انطلقت جهود رشيد رضا نحو تجديد إسلامي، بإعادة مكانة الإسلام من جهتين:

- الأولى: المحافظة على ثوابته وعلى رأسها العقيدة.
- والثانية: بالدعوة إلى وجوب الاجتهاد وتحريم التقليد.

2- تعددت صيغ معاني التجديد عند رشيد رضا، من خلال ما نشره في مجلة المنار، وهذا لتعدد معارفه، وثقافته الجامعة بين التراث والعلوم المعاصرة. فكان التجديد عنده هو:

- إحياء ما خفي من تعاليم الدين وسننه.
- محاربة البدع والمحدثات، وتطهير الإسلام من بقايا الجاهلية، والرجوع به إلى ما كان عليه الرسول ﷺ والسلف الصالح.
- تنزيل الأحكام الشرعية على الحوادث المستجدة، ومعالجتها وفقا لما جاء به الكتاب والسنة.

4- يعبر رشيد رضا دائما عن التجديد بكونه (ضرورة) فهو إذا مقصد شرعي، يمكن أن يصنف ضمن الضروريات، إذ أن غيابه يسبب حرجا شديدا.

5- من التجديد ما هو حسن نافع، ومنه ما هو قبيح ضار، مفسد لأمري الدين والدنيا جميعا.

6- لا يحصل التجديد إلا بأدوات وضوابط، إذا لم تتحقق وقع الخلل والفوضى، وتحول التجديد إلى إلحاد وشقاق، ويمكن جمع هذه الضوابط في ضابط واحد ضمن القاعدة الأصولية المجمع عليها: (لا اجتهاد في مورد النص).

7- إذا كان جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده أبرز شخصيات الإصلاح الديني، فإن رشيد رضا هو امتداد لهما، بل لقد فاقهما، ودليل ذلك أمران:

- الأول: أراد رشيد رضا أن يطهر الدين من البدع وخرافات الحضارة الغربية، فكان معتدلا في اتجاهه، وليس كأستاذيه الأفغاني ومحمد عبده، اللذين كانا أكثر انفتاحا على الحضارة الغربية، بدليل أن حسن البنا تأثر برشيد رضا دون الأفغاني وعبده.

- الثاني: أراد رشيد أن يحيي الدين وعلومه في النفوس ليقيم العمل به وفق طريقة السلف الصالح، كما فعل الغزالي في الإحياء.

وهذه التحولات في حياة رشيد رضا صيرته مجددا بارزا حقا، حتى قيل عنه: "بدأ رشيد رضا متصوفا في القسم الأول في حياته، وإصلاحيا في وسطها، وانتهى سلفيا في آخر حياته"56.

8- التجديد في علم التفسير عند رشيد رضا يشمل: تقصيد نصوص القرآن الكريم، وتجنب الإسرائيليات وكثرة الروايات.

9- رشيد رضا ينطلق من واقعه عندما دعا إلى خلافة إسلامية راشدة، وبمنظار تلك الفترة التاريخية التي عاشها، وليس بمنظار وقتنا الحاضر.

10-لرشيد رضا السبق – بحسب علمي – في بيان التجديد على مستوى الخلافة الإسلامية وله آراء لا توجد عند غيره، ولا يمكن للباحثين والقادة السياسيين الاستغناء عنها. رغم أنه لم يفصح عنها بالتفصيل، فلو أفصح عنها لا

أمكن اعتباره مجدد القرن الرابع عشر للهجرة في الفكر السياسي بدون منازع. قال: "لا أرى من المصلحة أن أنشر كل ما عندي من العلم والرأي التفصيلي، في وسائل تجديد الإمامة الإسلامية العظمى ومقاصده ومنافعه، لأنني أخشى أن يستفيد منه أعداء الإسلام، ما يكونون أقدر به على قطع الطريق علينا، من حيث لا ننتفع نحن به كما يجب، فإن استعدادنا لهذا الإصلاح لا يزال ضعيفا جدا..."[57].

الهوامش:

---

[1] ـ مجلة المنار: مج 30 – ج 2 – ص 115
[2] ـ المرجع نفسه: مج 30 – ج 2 – ص 115
[3] ـ المرجع نفسه: مج 32 – ج 3 – ص 226
[4] ـ مجلة المنار: مج 30 – ج 2 – ص 115
[5] ـ المرجع نفسه: مج 32 – ج 3 – ص 226
[6] ـ المرجع نفسه: مج 32 – ج 1 – ص 49
[7] ـ المرجع نفسه
[8] ـ انظر مجلة المنار: مج 32 – ج 1 – ص 49
[9] ـ سورة هود: الآية 88
[10] ـ تفسير المنار: 12 / 112
[11] ـ رواه أبو داود في سننه، والحاكم في مستدركه، والبيهقي في المعرفة وغيرهم من حديث أبي هريرة، وأشار السيوطي إلى صحته في جامعه الصغير
[12] ـ انظر مجلة المنار: مج 32 – ج 1 – ص 2
[13] ـ المرجع نفسه
[14] ـ المرجع نفسه
[15] ـ مجلة المنار : مج 31 – ج 10 – ص 770
[16] ـ تسمية نوعي التجديد إنما استنتجته من معناهما عند رشيد رضا .
[17] ـ رواه مسلم، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة، ومن دعا إلى هدى أو ضلالة: ج 4 – ص 2059
[18] ـ انظر مجلة المنار: مج 32 – ج 3 – ص 226
[19] ـ المرجع نفسه
[20] ـ رواه مسلم، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا دون ما ذكره من معايش الدنيا، ج 4 – ص 1836
[21] ـ انظر مجلة المنار: مج 32 – ج 1 – ص 49
[22] ـ انظر المرجع نفسه: مج 31 – ج 10 – ص 770
[23] ـ المرجع نفسه: مج27 – ج 10 – ص 799
[24] ـ المرجع نفسه: مج 30 – ج 2 – ص 115
[25] ـ مجلة المنار: مج 30 – ج 2 – ص 115
[26] ـ المرجع نفسه: مج 32 – ج 3 – ص 226
[27] ـ انظر المرجع نفسه: 30 – مج 2 – ص 115
[28] ـ هود : 88
[29] ـ مجلة المنار: مج 31 – ج 10 – ص 770
[30] ـ الإسراء: الآية 16
[31] ـ إبراهيم : الآية 13
[32] ـ القصص: الآية 59

[33] ـ هود: الآية 117
[34] ـ مجلة المنار: مج 31 – ج 10 – ص 770
[35] ـ المرجع نفسه: مج 31 – ج 10 – ص 770
[36] ـ انظر المرجع نفسه: مج 13 – ج 10 – ص 750-751
[37] ـ مجلة المنار: مج 4 – ج 22 – ص 852
[38] ـ انظر تفسير المنار: 5 / 162
[39] ـ النساء: 91
[40] ـ رواه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب لا يعذب بعذاب الله، ج 6 – ص 2537
[41] ـ البقرة: 256
[42] ـ وقد أورد رشيد رضا الكثير من الآيات والأحاديث وتحدث عن النسخ، وقد لا يوجد مثل كلامه في موقف اخر، انظر مجلة المنار: مج 23 – ج 3 – ص 185
[43] ـ تفسير المنار: 1 / 22
[44] ـ المرجع نفسه: 1 / 21
[45] ـ المرجع نفسه: 1 / 15
[46] ـ انظر المرجع نفسه : 11 / 186 وما بعدها
[47] ـ انظر تفسير المنار: 1 / 13
[48] ـ انظر مجلة المنار: مج 1 –ج 39 – ص 764
[49] ـ انظر المرجع نفسه
[50] ـ مجلة المنار: مج 24 – ج 2 - 98
[51] ـ المرجع نفسه
[52] ـ انظر المرجع نفسه: مج 24 – ج 1 – ص 33
[53] ـ انظر مجلة المنار: مج 24 – ج 2 – ص 98
[54] ـ انظر المرجع نفسه: مج 24- ج 1 – ص 33
[55] ـ انظر المرجع نفسه: مج 24 – ج 2 – ص 98
[56] ـ مجلة الكلمة ، العدد 24 ، المقال بعنوان: الشيخ محمد رشيد رضا وتحولات الفكر الإسلامي المعاصر: زكي الميلاد : ص 17 ، 1420 هـ - 1999 م
[57] ـ انظر مجلة المنار: مج 24 – ج 2 – ص 98